

تفسير البغوي

سورة الممتحنة .

1 - { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء } الآية .

أخبرنا عبد الواحد المليحي حدثنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا سفيان بن عمرو بن دينار أخبرني الحسن بن محمد أنه سمع عبد الله بن أبي رافع يقول سمعت علياً عليه السلام يقول : [بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنا والزبير والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا (روضة خاخ) فإن بها طعينة عها كتاب فخذوه منها قال : فانطلقنا تتعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالطعينة فقلنا : أخرجي الكتاب فقالت : ما معي كتاب فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب قال : فأخرجته من عقاصها فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا حاطب ما هذا ؟ قال : يا رسول الله لا تعجل علي إنني كنت امرأ مملصقا في قريش - يقول كنت حليفا ولم أكن من أنفسها - وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم فأحببت - إذ فاتني ذلك من النسب فيهم - أن أتخذ عندهم يدا يحمون قرابتي ولم أفعله ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام - فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أما إنه قد صدقكم فقال عمر : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال : إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم فأنزل الله تعالى هذه السورة : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة } إلى قوله : { سواء السبيل } .

قال المفسرون : نزلت الآية في حاطب بن أبي بلتعة كما جاء في الحديث وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هاشم بن عبد مناف أتت المدينة من مكة ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتجهز لفتح مكة فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أأسلمة جئت ؟ قالت : لا قال أمهاجرة جئت ؟ قالت : لا قال : فما جاء بك قالت : كنتم الأصل والعشيرة والموالي وقد ذهبت موالي وقد احتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني فقال لها : وأين أنت من شبان مكة ؟ وكانت مغنية نائحة قالت : ما طلب مني شيء / بعد وقعة بدر فحث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بني عبد المطلب وبني المطلب فأعطوها نفقة وكسوها وحملوها فأتاها حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزى فكتب معها إلى أهل مكة وأعطاهم عشرة دنانير وكساها بردا على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة وكتب في الكتاب : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يريدكم فخذوا حذرکم . فخرجت سارة ونزل جبريل فأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما فعل فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليا وعمارا والزبير

وطلحة والمقداد بن الأسود وأبا مرثد فرسانا فقال لهم : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها طعينة معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين فخذوا منها وخلوا سيلها وإن لم تدفعه إليكم فاضربوا عنقها .

قال : فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي قال رسول الله ﷺ فقالوا لها : أين الكتاب ؟ فحلفت بالله ما معها كتاب فبحثوها وفتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتابا فهموا بالرجوع فقال علي بن أبي طالب : والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله ﷺ وسل سيفه فقال : أخرجي الكتاب وإلا لأجردنك ولأضربن عنقك فلما رأت الجد أخرجته من ذؤابتها قد خبأته في شعرها فخلوا سيلها ولم يتعرضوا لها ولا لما معها فرجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ .

فأرسل رسول الله ﷺ إلى حاطب فأتاه فقال : هل تعرف الكتاب ؟ قال : نعم قال : فما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا رسول الله ﷺ ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته وكنت غريبا فيهم وكان أهلي بين طهرانيهم فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم يدا وقد علمت أن الله ﷻ ينزل بهم بأسه وأن كتابي لا يغني عنهم شيئا فصدقه رسول الله ﷺ وعذره .

فقام عمر بن الخطاب فقال : دعني يا رسول الله ﷺ أضرب عنق هذا المنافق .

فقال رسول الله ﷺ : وما يدريك يا عمر لعل الله ﷻ قد اطلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ؟ فأنزل الله ﷻ في شأن حاطب : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء } .

{ تلقون إليهم بالمودة } قيل : أي المودة والباء زائدة كقوله : { ومن يرد فيه بإلحاد بظلم } (الحج - 25) وقال الزجاج : معناه تلقون إليهم أخبار النبي ﷺ وسره بالمودة التي بينكم وبينهم { وقد كفروا } الواو للحال أي : وحالهم أنهم كفروا { بما جاءكم من الحق } يعني القرآن { يخرجون الرسول وإياكم } من مكة { أن تؤمنوا } أي لأن آمنتم كأنه قال : يفعلون ذلك لإيمانكم { يا أيها الذين آمنوا إن كنتم خرجتم } هذا شرط جوابه متقدم وهو قوله : { لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ﷻ ربكم إن كنتم خرجتم } { جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة } قال مقاتل : بالنصيحة { وأنا أعلم بما أخفيتم } من المودة للكفار { وما أعلنتم } أظهرتم بألسنتكم { ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل } أخطأ طريق الهدى